

تفسير ابن كثير

وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ^ج إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

وقوله : (واقصد في مشيك) أي : امش مشيا مقتصدا ليس بالبطيء المتشط ، ولا

بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين . وقوله : (واغضض من صوتك) أي : لا تبالغ

في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ; ولهذا قال تعالى : (إن أنكر الأصوات

لصوت الحمير) قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي : غاية

من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا

التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ; لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه " . وقال

النسائي عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ،

عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [أنه] قال : " إذا سمعتم

صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ،

فإنها رأت شيطانا " . وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر

بن ربيعة به ، وفي بعض الألفاظ : " بالليل " ، فالله أعلم .فهذه وصايا نافعة جدا ، وهي من
قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة
، فلنذكر منها أنموذجا ودستورا إلى ذلك .قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا
ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرني نهشل بن مجمع الضبي عن قزعة ، عن ابن عمر
رضي الله عنه قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن لقمان الحكيم كان
يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه " .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ،
حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مخيمرة
يحدث عن أبي موسى الأشعري] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال لقمان
لابنه وهو يعظه : يا بني ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار " .وقال : حدثنا
أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضمرة ، حدثنا السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه :
يا بني ، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة
بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عون بن عبد الله
قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام -

ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل

سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .وحدثنا أبي ، حدثنا

عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ، عن حفص بن عمر ، رضي

الله عنه ، قال : وضع لقمان جرابا من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج

خردلة ، حتى نفذ الخردل ، فقال : يا بني ، لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل لتفطر .

قال : فتفطر ابنه .وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي ، حدثنا

أحمد بن عبد الرحمن الحراني ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، حدثنا أيمن بن

سفيان المقدسي ، عن خليفة بن سلام ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل

الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن " .قال أبو القاسم الطبراني : أراد

الحبش .فصل في الخمول والتواضع وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد

جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابا مفردا [و] نحن ، نذكر منه مقاصده ،

قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد الله بن موسى المدني ، عن أسامة بن زيد ،

عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " رب أشعث ذي طمرين يصفح عن أبواب الناس ، إذا أقسم على الله لأبره " . ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلي بن زيد ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ، وزاد منهم البراء بن مالك . [وروي أيضا عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة "] .

وقال أبو بكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : " إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة " . حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عثمان بن علي ، عن حميد

بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رب ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله
لأبره ، لو قال : اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئا " . وقال
أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي
الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم
يسأله دينارا أو درهما أو فلسا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأل الدنيا
لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله
لأبره " . وهذا مرسل من هذا الوجه . وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر
بن سليمان ، حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له ، الذين إذا استأذنوا على
الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج
أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم " . قال : وأنشدني
عمر بن شبة ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك : ألا رب ذي طمرين في منزل

غدا زرايه مبثوثة ونمارقه قد اطردت أنهاره حول قصرهوأشرق والتفت عليه حدائقههروي

- أيضا - من حديث عبيد الله بن زحر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : " قال الله : من أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضا في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك " . قال : ثم نقد رسول الله بيده وقال : " عجلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه " . وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل : ومن

الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم . وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم .. ؟ ألم .. ؟ ألم أحمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تعرف فافعل ، وما عليك ألا يثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محمودا عند الله . وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا حاملا . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك . ثم قال :باب ما جاء في الشهرة حدثنا أحمد بن عيسى المصري ،

حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حسب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم " . وروي مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبي فديك ، عن محمد بن عبد الواحد الأخنسي ، عن عبد الواحد بن أبي كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعا ، مثله . وروي عن الحسن مرسلا نحوه ، فقليل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق . وعن علي ، رضي الله عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكنم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار ، وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف ; كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وقال : حدثنا علي بن الجعد ،

أخبرنا شعبة ، عن عوف ، عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار. وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبع . وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان . وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يغمه . وقال عبد الرزاق ، عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص ، واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما . وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ، ويستندل دينه . وحدثنا خالد بن خدّاش : حدثنا حماد ، عن أبي حسنة - صاحب الزيادي - قال : كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ،

فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق . وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم ، والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ، ما لهم تفاقدوا . وفي بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبني إسرائيل : ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألینوا قلوبكم بالخشية . فصل في حسن الخلق قال أبو التياح : عن أنس ، رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا . وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضل ؟ قال : " أحسنهم خلقا " . وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : " إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد " . وعن سنان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : " ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة " . وعن عائشة مرفوعا : " إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار " . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أخبرني أبي وعمي ، عن جدي ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه : سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، فقال : " تقوى الله وحسن الخلق " . وسئل
عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : " الأجوفان : الفم والفرج " . وقال أسامة بن شريك
: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا :
يا رسول الله ، ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : " حسن الخلق " . وقال يعلى بن مملك :
عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء - يبلغ به - قال : " ما [من] شيء أثقل في الميزان من
حسن الخلق " ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به . وعن مسروق ، عن عبد الله بن
عمرو مرفوعا : " إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا " . حدثنا عبد الله بن أبي بدر ، حدثنا
محمد بن عبيد ، عن محمد بن أبي سارة ، عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي
المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح " . وعن مكحول ، عن أبي ثعلبة مرفوعا :
" إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا ، أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم
مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقا ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون " . وعن أبي أويس
، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعا : " ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم

أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون " . وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما حسن الله خلق رجل وخلقته فتطعمه النار " . وعن عبد الله بن غالب الحداني ، عن أبي سعيد مرفوعا : " خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق " ، وقال ميمون بن مهران ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر " . حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليزيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل " . وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي هريرة مرفوعا : " إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق " . وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين . فصل في ذم الكبرقال علقمة ، عن ابن مسعود - رفعه - : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر ، ولا

يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان " .وقال إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي سلمة ،
عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : " من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على
وجهه في النار " .حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن
إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعا : " لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من
الجبارين ، فيصبيه ما أصابهم من العذاب " .وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود
، عليهما السلام ، ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن ،
فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ، ثم خفضه حتى مست قدمه ماء البحر ،
فسمعوا صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخشف به أبعد مما رفع
 .حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال
 : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان ، حتى إن أحدا ليقدر نفسه ، يقول : خرج
من مجرى البول مرتين .وقال الشعبي : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا أتريد أن تقتلني
كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض) [القصص : 19] وقال
الحسن : عجبا لابن آدم ، يغسل الخراء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبرا يعارض جبار

السموات ، قال : حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا حماد بن زيد ، عن علي بن الحسن ،
عن الضحّاك بن سفيان ، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم . وقال
الحسن ، عن يحيى ، عن أبي قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قزحه وملحه
. وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - : ما دخل قلب رجل
شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك . وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ،
ولا مع التوحيد نفاق . ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك
قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن من في بطنه
خرء ؟ فقال له كالمعتذر إليه : يا عم ، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى
تعلمتها . قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه
المشية . فصل في الاختيال عن أبي ليلي ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا : " من جر ثوبه
خيلاء لم ينظر الله إليه " . ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن
أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله . وحدثنا محمد بن بكار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي
الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعا : " لا ينظر الله يوم القيامة إلى من

جر إزاره " . و " بينما رجل يتبختر في برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ،
فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة " . وروى الزهري عن سالم ، عن أبيه : " بينما رجل . . .
إلى آخره .